مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد السابع ،العدد الرابع ، ماي 2022 ص - ص:817.-836

الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية ودورها في تشريح واقع الجزائريين إبان الحقبة الإستعمارية (نماذج من رواية الدار لكبيرة لمحمد ديب).

The Algerian novel in French and its role in dissecting the reality of Algerians in the colonial era. (Examples of the novel by Dar Al-Kabira by Mohamed Deeb)

بنادي مُحَمَّد الطاهر (*)

جامعة مُحَمَّد خيضر بسكرة – الجزائرmt.benadi@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 04 /2021/05 **تاريخ القبول:** 26 /2022/04 **تاريخ النشر:** 11 /2022/05

الملخص

بعد أن أحكمت فرنسا الاستعمارية قبضتها على الجزائر عام *1830* ، انتهجت سياسة القهر والإرهاب في حق الجزائريين مستهدفة بذلك البنية الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، وذلك بالتشكيك في عقيدتهم، تشويه ماضيهم التاريخي، طمس قيمهم، معالم حضارتهم، تراثـــهم والنيل من شخصيتهم، التي صقلتها الأحداث التاريخية، غير أن الشعب الجزائري واجه هذه السياسة بكل الإمكانيات والوسائل المتاحة، منها الأدب وخصوصا الرواية باللغة الفرنسية التي عرّت الاستعمار وكشفت مكائده، حيث قادها أدباء عبَّروا عن قضايا وطنهم، مشَرحين معاناة أبنائه، وذلك بلغة غريبة عن أصالتهم وانتمائهم، لذا نجح مُحَمَّد ديب وغيره ممن كتب بهذه اللغة في التفاعل مع نضالات الشعب الجزائري معبرين عن واقعه المعاش آنذاك، فرواية دار السبيطار احتوت على مضامين سياسية، اقتصادية، اجتماعية وثقافية عبرت عنـــها شخوص الرواية.

الكلمات الدالة الرواية؛ مُحَمَّد ديب؛ الدار الكبيرة؛ الاحتلال؛ الجزائر 1830-1962.

Abstract:

After colonial France tightened its grip on Algeria in 1830, it pursued a policy of oppression and terrorism against the Algerians, targeting the economic, social and cultural structure, by questioning the beliefs of the Algerians, distorting their heritage, and undermining their personality that has been refined by historical events so these Algerian people fightedthat Policy with all available means and possibilities, literature was among them, Especially novel written in French, which exposed the colonialism and exposed its machinations.

* **المؤلف المرسل**

It was led by writers who expressed the issues of their homeland, which explain the suffering of their countrymen, in a strange language for their originality and affiliation, so we find Mohamed Dib and others who wrote in this language in interacting with the struggles of the Algerian people, expressing the life at the time,and characteristics of people in the novel which expressed the cultural.

Keywords: The novel; Mohamed Dib; the big house; Occupation; Algeria1830-1962.

1. مقدمة:

احتلت الرواية حيزا كبيرا في مخيال الشعب الجزائري، بإعتبارها عنصرا مهما من عناصر كتابة تاريخ الجزائر المعاصر، ضمن نسق جمالي يوظف الأحداث، لتشكل واقعا تاريخيا يوثق لأحوال الجزائريين القاسية منذ حلول الاستعمار الفرنسي عام **1830**م، هذا الأخير كان له الأثر البالغ على مختلف جوانب حياة الجزائريين، فهو لم يكن احتلالا استيطانيا فحسب بل استهدف حتى البنية الاجتماعية، الثقافية والأسس الحضارية لأمتنا، بواسطة التشكيك في عقيدتها وتشويه ماضيها التاريخي وطمس قيمها ومعالم تراثها والنيل من شخصيتها.

لذا جاء الأدب الجزائري ومن ورائه الرواية باللغة الفرنسية لتوعية الجزائريين وفضح سياسات الاستعمار الفرنسي، ورغم ما واجهته هذه الرواية الناطقة باللسان الفرنسي من انتقادات قد تصل في بعض الأحيان إلى التشكيك في وطنية وصدقية من كتبوها، إلا أن أصحابها من جيل ما قبل الثورة وجدوا أنفسهم يعبرون عن واقع أمتهم وما حمله من مرارة وذلك بلغة فرنسية غريبة عن أصالتهم وانتمائهم.

من هذا الطرح نورد الاشكالية الاتية:

- إلى أي مدى عكست الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية واقع الجزائريين إبان العهد الاستعماري؟

تندرج تحت هذه الإشكالية عدة تساؤلات فرعية:

- هل حققت أهدافها في رسم واقعه آنذاك؟

- هل استطاعت الرواية الجزائرية التعبير بصدق عن معاناة الجزائريين؟

- إلى أي مدى نجحت الرواية باللغة الفرنسية في الربط بين الجانبين التاريخي والادبي؟

بما أن طبيعة الموضوع محل الدراسة وخصوصية مضامينه، تتحكم إلى حد بعيد في نوع المنهج المتبع، لهذا كان لزاما علينا استعمال مناهج متعددة لخدمة جوانب الموضوع وإثرائه، فقد اعتمدنا المنهج التاريخي لمتابعة ما تضمنته الرواية من احداث تاريخية، كما استخدمنا المنهج الوصفي المسحي خلال الحديث عن شخوص الرواية، وكذا المنهج التحليلي خاصة عند تحليل بعض الأحداث وربط الأسباب ببعضها البعض، والوقوف على جل الجوانب السياسية، الاقتصادية والاجتماعية التي عالجتها الرواية وتداعياتها على الشعب الجزائري في ظل السياسة الاستعمارية.

إن هذه الورقة البحثية تهدف إلى إبراز النظرة الشمولية لتطلعات الرواية الجزائرية المكتوبة بلغة المستعمر، مع تبيان وفضح سياساته وكشف ممارساته الارهابية اتجاه الجزائريين في تلك الحقبة ، وهذا ما سوف نركز عليه من خلال إبراز دورها في رسم الواقع المعاش للجزائريين والظروف القهرية التي فرضت عليهم جراء القوانين الجزرية الفرنسية، وقد اعتمدت على عدة مصادر ومراجع في اثراء هذه الورقة البحثية نذكر منها على سبيل المثال كتاب يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند مُحَّد ديب الذي تناول مفهوم مُحَّد ديب للرواية الجزائرية باللسان الفرنسي، وأحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، الذي اعطانا فكرة عن أزمة الهوية من خلال معالجته للواقع الجزائري آنذاك، وأم الخير جبور من خلال كتابها الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، الذي أفادنا في معرفة هذا النوع من الكتابات الادبية.

2. أدب المقاومة أو الأدب الثوري:

عندما نتناول تاريخ الجزائر المعاصر، فإن الصورة الذهنية التي تتبادر إلينا هي ذلك الزخم الذي تركته المقاومة في النصوص الروائية الجزائرية، ويعود ذلك لثرائها بالأحداث المختلفة،

فالثورة أو المقاومة تعنيان حق الشعوب في الدفاع عن نفسها، رفع الغبن عنها، دحر الظلم والظالمين، تغيير الواقع الاستعماري بواقع جديد تعيش فيه هذه الأخيرة في كنف الحرية والاستقلال، لذا فإن أدب المقاومة الجزائرية هو صورة حية لكفاح شعب انتفض في وجه الآلة العسكرية الفرنسية دفاعا عن قيمه وأرضه والتي أراد المستعمر الفرنسي أن يبني أمجاده على حساب أهلها ويستغلها لعقود من الزمن.

لقد عبر الأدب الثوري ومنه الرواية بكلتا اللغتين عن البعد الإنساني لإنتفاضات الشعوب ورفضها لممارسات الإستعمار، فهي تتلاقى مع الفعل الثوري في طريقها نحو الحرية والاستقلال، وبذلك فالعلاقة متلازمة بين المقاومة والأدب الثوري وكلاهما يكمل الآخر، فمقاومة الشعب الجزائري للمستعمر الفرنسي وجدت الأدب من شعر، رواية ومقالة ملازما لأهم المحطات التاريخية، بحيث رصدت معاناة الجزائريين السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، بل إن الرواية كجزء من هذا الأدب شرحت واقع الجزائريين المرير إبان الحقبة الاستعمارية الغابرة [(1)].

إذا كانت المقاومة الجزائرية ذات أهداف إنسانية سامية، فإنها حددت أولى هذه الأهداف وهي تحرير الإنسان من كل أصناف القهر والاستعباد، مما جعل الروائيين الجزائريين شديدي الإرتباط بصورة وواقع المجتمع الجزائري في تلك الحقبة، بل إن الكثير منهم عبَّد الطريق من أجل افتكاك الحرية، وذلك بإحيائه لروح التضحية والفداء في أوساط الجزائريين المتمسكين بحقهم وبجذورهم متحدِّين القهر والمعاناة [(2)].

لقد اكتسبت الرواية الجزائرية ميزة خاصة بفضل معالجتها لقضايا جوهرية، من بينها النضال السياسي والعمل المسلح بإنتاجها، الذي ركز على تعميق الوعي الجماعي بالهوية الوطنية التي صقلتها ضمن منظومة وطنية واحدة.

إنَ ما ميز الأدب الثوري في الجزائر عن غيره من آداب الشعوب الأخرى، هو ذلك التشابك بين الكتابة بالعربية والفرنسية، فقد اجتمعت عناصر اللغة، الفكر، البيئة، التاريخ والإنسان لتشكل مشهدا ثريا يصور الأدب الجزائري المعاصر، هذا الأخير جعل من الرواية الجزائرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، تظهر بسبب تطورات الأحداث في الجزائر، كي تعبر عن ركام تجارب هائلة ومختزنة، والتي عاشها الجزائريون بكل أحاسيسهم ووجدانهم، فهي لم تكن يوما ما من نسج الخيال [(3)].

3. الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية ومراحل ظهورها:

تعد الرواية من بين الأنواع الأدبية التي حاولت أن تجسد الذات وتبرز الواقع وتشرح تعقيداته مستخدمة كل صنوف الأدب الأخرى من أساليب، خطاب وفنون، إن فترة الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، أسست لميلاد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، وقد كان من بين روادها بعض خريجي المدرسة الفرنسية أمثال مولود فرعون(08 مارس 1913 /15 مارس 1962)، مولود معمري (28ديسمبر 26/1917 فيفري 1989) ومُحَّد ديب (21 جويلية 1920/ 02 ماي 2003)، الذين حاولوا التعبير عن القضية الوطنية باللغة الفرنسية [(4)]، هذا التعبير كان نتيجة حتمية لواقع لم تكن لهم يد فيه، فهم دافعوا عن وطن جزائري يشعر فيه الجزائري بالغربة، الضياع والتشرد رغم قلة مقروئيتها [(5)].

لقد كان ظهورها ردا على كتابات بعض الروائيين الفرنسيين، الذين حاولوا تزييف التاريخ والحقائق ونعت الجزائريين بالتوحش والهمجية، كما كانوا يركزون في رواياتهم على أوجه الحياة في المدن الساحلية كالبحر والشمس، مهملين بذلك اهتمامهم بالمناطق الداخلية في الجزائر ومعاناة سكانها، لذا صور هؤلاء الكتاب الجزائريون مظاهر القمع، القهر والتدمير الذي مارسته فرنسا

في الجزائر، بعد أن خطَت الرواية مسارها وحددت أهدافها وعبرت عن واقع الجزائريين وطموحاتهم طلبا للحرية والانعتاق[6].

مرت الكتابة الأدبية عن الجزائر وفي الجزائر عبر مراحل تاريخية، تمثلت في: المرحلة الأولى وهي مرحلة القرن التاسع عشر، المرحلة الثانية من بدايات القرن العشرين حتى عام **1935**م، والاخيرة كانت مع نهاية الحرب العالمية الثانية حيث ظهرت حركة أدبية جديدة أطلق عليها اسم مدرسة الجزائر (**l'école d'Alger**)، والتي تزامن ظهورها مع نمو اتجاهات ومطالب الحركة الوطنية المختلفة، وقد برز في هذه المدرسة كتاب جزائريون وظفوا اللغة الفرنسية في خدمة قضايا شعبهم (مولود فرعون، مولود معمري و مُحَّد ديب ومعهم كتاب سياسيون)، وهكذا أصبحت الرواية باللغة الفرنسية سلاحا من أسلحة المعركة ضد الإستعمار[7]،حتى قيل من قبل بعض الفرنسيين أنه من غير المعقول أن نشتم بلغتنا.

فقد اعتبر الدكتور عبد الله الركيبي بأن الأدب الجزائري ومنه الرواية باللغة الفرنسية، هو أدب جزائري خالص، لأنه كتب في الفترة الاستعمارية، وبالتالي فإن المقاومة الجزائرية كانت بحاجة ماسة إلى كل سلاح يمكن استخدامه في وجه السياسة الفرنسية ومنها القلم والكلمة الشريفة المناضلة وبأي لغة كتبت [8].

4. مُحَّد ديب وإنتاجه الروائي:

ينتمي مُحَّد ديب إلى أسرة برجوازية بمدينة تلمسان، بدأ دراسته بمسقط رأسه، ثم أكملها بمدينة وجدة المغربية، أتقن تعلم اللغة الفرنسية نطقا وكتابة[9]، ورث عن أبيه حرفة صناعة الزرابي، عين عام 1939م مدرسا في قرية زوج البغل بين الحدود الجزائرية المغربية، بعدها اشتغل موظفا في شركة السكة الحديد الجزائرية بمدينة وجدة، ثم سافر بعدها إلى الجزائر العاصمة،

حيث اشتغل مترجما لدى الحلفاء، وفي الفترة الممتدة ما بين 1950/1952م عمل بجريدة الجزائر الجمهورية«Alger républicain»، وبعد عام 1952م غادر إلى فرنسا مع زوجته الفرنسية«calette bellissant»، حيث نشر هناك روايته الأولى الدار لكبيرة« la grande maison» عام 1952م، ثم روايته الثانية الحريق«l'incendie» عام 1954م، بعدها وفي عام 1957م صدرت روايته الثالثة (النول) «le métier à tisser»، وقد عرفت هذه الروايات بثلاثية مُحَّد ديب (ثلاثية الجزائر)[10].

كتب باللغة الفرنسية كأداة للتعبير عن هموم الجزائريين، مشهرا الكتابة بهذه اللغة كسلاح من أسلحة المواجهة ضد فرنسا وثقافتها الدخيلة، ونتيجة لكتاباته المعادية للاستعمار تم نفيه من الجزائر عام 1959م، بعد أن عاد إليها قبل هذه السنة، ترك إنتاجا أدبيا غزيرا تنوع بين الرواية، القصة، دواوين شعرية، ومقالات حول موضوعات مختلفة تهتم بالإنسان والوطن بالإضافة إلى سيناريوهات ونصوص مسرحية عديدة [11]، إن من بين أقواله: «...إن شعبنا الذي نحارب من أجل حريته، سيحررنا، في الوقت نفسه، للتعبير عن أحاسيسنا وبالتالي سنحرر تصورنا للفن والثقافة »، وفي سياق أخر له عام 1961م قال مايلي: «... بصفتي كاتبا لقد اخترت أن أحارب في ميدان الأدب لأنقل الحقائق الجزائرية، واتقاسم مع الذين سيقرؤون كتاباتي ألام وآمال وطننا ...»[12]، فهو يرى بان الرواية هي جهاد لأجل الحرية ، وفي هذا الإطار كتب سنة 1950م مايلي:«... سخرت الطبقة المثقفة قوى إبداعها لخدمة الجزائريين المضطهدين، فهذا الإبداع قدم ثقافة وأعمالا لا تقل قوة عن الأسلحة الحربية لاسترجاع الحرية ...»[13].

لقد وصف الشاعر الفرنسي (أراغو) ثلاثية الجزائر بـ «مذكرات الشعب الجزائري»، وسمى صاحبها بلزاك الجزائر فهو بحق رائد الرواية الجزائرية المعاصرة باللغة الفرنسية، ومن بين

القلائل الذين وظفوا فن الكتابة لينطق ويعبر عن هموم الأمة، كما أن شهرته تجاوزت الإطار الوطني ليصبح من كبار الكتاب العالميين.

5. نماذج من رواية الدار لكبيرة.

1.5. محتوى الرواية:

صدرت رواية الدار لكبيرة سنة 1952م عن دار النشر لوساي «seuil» في مئة وتسعين صفحة، وهي الجزء الأول من ثلاثية الجزائر، وقد أثارت هذه الرواية جدلا واسعا بين المثقفين، شكلت منعطفاً حاسماً في تطور الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على مستوى مضمون النص.

إن أحداث هذه الرواية وقعت في دار السبيطار وهي عبارة عن مستشفى سابق، فهي مسكن كبير وقديم تتوسطه باحة صغيرة تسكنه عائلات معدمة، حيث تشكلت صورة الجزائر من خلال فاعليها وشخوصها الذين أذلهم الاستعمار وسلب كرامتهم، إنسانيتهم وممتلكاتهم، ليصبحوا أجزاءً في أرضهم وفي هذه الدار تقطن «لالا عيني» الأرملة البائسة الفقيرة، التي تتولى شؤون أبنائها الأيتام وأمها العجوز المريضة وابنها عمر الصبي بطل الرواية وكذلك حميد سراج المناضل السياسي والمثقف وهو محل بحث من قبل الشرطة الفرنسية، والذي مثل رمز الإرهاص الثوري[14]، وقد مثل الإطار الزماني (1933-1942) والإطار المكاني بتلمسان عنصران مهمان من عناصر الرواية، التي صدرت في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وقد تزامن صدورها مع أحداث سياسية شهدتها الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، بحيث أحدثت تحولا عميقا، حتى أصبحت منعرجاً حاسماً في تاريخ الجزائر السياسي والثقافي.[15]

لهذا تصدى مُحَّد ديب في هذه الرواية للوجود الاستعماري، فقد وصف واقع الجزائريين بأنه فظيع فظاعة الاستعمار، إذ مثل مأساة اختصرت مأساة البشر، الذين حرموا حتى من لقمة عيشهم ومن حريتهم ومن ملكية أراضيهم، وقد طغت شخصية عمر على معظم المشهد الروائي، هذه الشخصية اختصرت الوسط الذي كان يعيش فيه، فهي لم تكن من نسيج مخيال الكاتب بل كانت واقعاً حقيقياً عاشه الجزائريون بكل تفاصيله، إنها من الروايات التي تسبق الثورات بل تخطط لها [16].

إن رواية الدار لكبيرة تدين الاستعمار وتحرض على الثورة ضده بتصويرها لمظاهر البؤس، الاضطهاد والحرمان في المجتمع الجزائري، موجها له أصابع الاتهام في كل ما لحق به من مآسي وقد ذكر ذلك بالقول: «... كأي جزائري كنت أناضل على الساحة الأدبية التي اخترتها ميدانا للكفاح، وذلك عن طريق التعريف بوقائع بلادي والحقائق التي تعيشها مقتسما أتعاب وأحلام بلادي مع أولئك الذين يقرؤون أعمالي ...»[17]، فكانت لالا عيني وعمر مثالا حيا لآلام الجزائريين آنذاك، والذين تشكل لديهم شعور بالتمرد على واقعهم والثورة على مستغليهم [18].

5. 2. نماذج من الرواية:

- الجوع:

لقد أثار مُحَّد ديب في روايته جوانب عديدة من حياة الشعب الجزائري الاجتماعية، فهناك طبقتان الأولى: تمثلت في الأهالي المضطهدين الخاضعين لأسلوب حياة فرضته عليهم ظروف الاستعمار الاقتصادية والثانية: المستعمرون الذين يعنون عند الطبقة الأولى العلم،

المعرفة، الاضطهاد والقهر، وبين هاتين الطبقتين توجد أقلية من الجزائريين ميسوري الحال وهم غالبا ما يكونون أذنابا للاستعمار وعملاء له[19]، وفي هذه الأجواء يعيش الطفل عمر ابن العاشرة مشكلتين رئيستين: الأولى مشكلة الجوع، الذي كان يعاني منه دوما لانعدام الطعام في بيته، بسبب فقر أسرته الشديد، الثانية: هي كيف يمكنه فهم العالم الذي يحيط به، وبالتالي وعي ما يدور حوله [20].

يصور لنا مُحَّد ديب جوع الأطفال الجزائريين وتلهفهم لقطعة خبز يملؤون بها بطونهم الخاوية، بعدما أخذ منهم الجوع ما أخذ، وبعدما سرق منهم حتى أمانيهم في الفوز بقطعة منه، فهاهو يصف لنا في مشهد من مشاهد روايته التناقض الصارخ بينهم وبين أبناء الميسورين من الجزائريين، حيث يتحدث عما أخبر به أحد أبناء هؤلاء الميسورين زملاءه من الأطفال المعدمين، فيقول عن الطفل الميسور إدريس خوجة : «...ومن عاداته الدائمة كل صباح أن يسرع بعد الفراغ من التهام ما جاء به، في سرد مأكولاته بالأمس ... لم يكن الحديث يدور إلا عن أطباق من اللحم المشوي في الفرن من الدجاج، من الكسكسي بالسمن والسكر...يظل الأطفال مشدوهين إزاء تلك الأطعمة التي تملأ أحاديثه ... » [21]، وأمام هذه الوضعية يسأله أحدهم : «...أنت تناولت لوحدك كل هذا اللحم ؟أكلته كله ومعه البرقوق؟ والبيض المقلي مع البطاطا ومعه الجلبان باللحم؟» [22].

وفي مشهد أخر مثير جدا، يصور لنا جانبا من جوانب البعد الإنساني لدى بطل الرواية الطفل عمر مع أحد شخوصها، وهو طفل صغير حقير تقطعت به السبل، يعيش في عزلة تامة عن أقرانه من الأطفال، فهو لا يجالسهم، بل لا يقاسمهم حتى اللعب، لذا كان عمر شديد الميل إليه يشفق عليه ويحس به، حيث يقول مُحَّد ديب : «...كان في أرجاء المدرسة طفل صغير، حقير في كل شيء، ينفتح على الوجود بأعين داكنة كالفحم، في وجه سقيم حائر، وقف

بمعزل، كان عمر يلاحظه وهو واقف متكئا على عمود في الساحة، يداه إلى الخلف ...، سلك عمر إليه مسارا التفافيا حول الساحة، ثم انبرى له من بعض أشجارها. ليترك ما تبقى له من خبز يسقط من يديه أمامه، تظاهر بأنه لم ينتبه لذلك وواصل مشواره مسرعا حتى وصل إلى مسافة اعتقدها كافية، فتوقف لمعاينته من بعيد، رآه مثبتا نظره في قطعة الخبز ثم انتشلها بحركة خفيفة ليعضها بكل أسنانه ...»[23].

وعن تعاسة الحياة وآلام الجوع والبؤس، الذي لا ينقطع لسنوات طويلة، كانت لالا عيني لا تجد ما تسد به رمق أولادها الأربعة الصغار بنتان، عويشة ومريم، وطفلان هما جيلالي وعمر، وقد فقدت جيلالي بعد عامين تقريبا من موت زوجها، وقد أتت عليها الأعوام وأخذ منها التعب والشقاء الكثير في كفاحها مع مشاكل الحياة فنجد مُحَّد ديب يعبر عن ذلك بالقول : «...كان الجوع يزداد حدة، ويحدث غرغرته في أمعاء الصغار...أخذوا يطالبون بالأكل، باستحياء أولا، بدت عيني محطمة، ثم ترجوَها معا، قامت من مكانها ووزعت قطعا قديمة من الخبز مع نصف حبة خيار ومسكة إصبع من الملح ...»[24].

وفي مشهد آخر كانت لالا عيني لا تجد ما تقدمه لأبنائها سوى أنها: «... صبَت ... محتوى يغلي من القدر، حساء من عجين مهشم وخضر، وسط صحن واسع ذي غراء مذاب، لا شيء غير هذا دون خبز، والخبز منعدم، هذا ما كان؟ صاح عمر تارشْتا بلا خبز...؟»[25].

انه و لتسكين آلام الجوع ،كانت لالا عيني توهم أطفالها الصغار بتحضير الطعام الذي لم يكن سوى ماء يغلى، فيأخذ منهم النوم نصيبه وهم جائعون فيقول: «...، كانت تقوم بتسخين القدر وتتركه يغلي وكانت تقول من وقت لآخر رَيْحُو بْلَعْقَلْ، كانوا يرسلون زفرات استسلام عميقة، وكان الوقت يمر، دُورْكْ يْطِيبْ يَالُولاَدْ ...، تتثاقل جفونهم بنعاس لا طاقة لهم

به، ينامون وقد لفهم النعاس ...، لم يكن القدر يحتوي سوى على مياه تغلى ...»[26]، لقد كان الجوع لدى سكان دار السبيطار همهم الأول فهم لم يكونوا ليحلموا إلا بالخبز وعلى كيفية الحصول عليه.

- **الوطن:**

يرى العديد من الدارسين بأن مُحَّد ديب وفق بشكل كبير في تصوير دار السبيطار على أنها رمز للوطن، فهو عندما يتحدث عنها، فإنه يريد التأكيد على ترسيخ فكرة الوطن، فما سرده من أحداث وقعت فيها يقابلها ما يقع في أرجاء الوطن الجزائري الفسيح، فسكان دار السبيطار كانوا يعيشون في سجن صغير داخل سجن كبير وهو الوطن المغتصب، فكانت حياتهم كلها فوضى، يسودها الخوف من المستقبل حياتهم مذلة، خضوع ومهانة لا تكاد تنتهي.

إن مُحَّد ديب نجح في وصف رحلة عمر في البحث عن الوطن من خلال علاقته بوالدته (عيني)، التي تربط أمومتها المختلطة بالغضب والحب مع أمومة الوطن، وقد جسدت عيني هذه الصلة، مما جعل صورة الوطن تقترن بصورة الأم في خيال عمر[27]، وهذا بعد أن سأله معلمه المسيو حسن حيث يقول:«... من منكم يعرف كلمة الوطن، أخذ التلاميذ ... فرنسا هي وطننا الأم، غمغم التلميذ إبراهيم ...، لكن عمر كانت شفتاه متماسكتان تظهران أنه يمضغ قطعة الخبز في فمه وهو يدري بأن فرنسا عاصمتها مدينة باريس، لقد جاء هؤلاء الفرنسيون من وراء البحار من بعيد إلى وطننا الجزائر، و لنصل إلى وطنهم يجب علينا أن نقطع البحر لنصل إليه أو نعود منه...، أن نركب باخرة...، إن فرنسا مختلفة علينا تماما، إنه من غير المعقول أن تكون أمنا، إن لالا عيني هي أمه موجودة في البيت، وعيني لا تمثل فرنسا فهي

تختلف عنها تماما ففرنسا ليست أمه ...»[28]، فبالنسبة لعمر فعيني هي الوطن وهي تعنى سكان دار السبيطار، بل وتعنى كل سكان الجزائر .

إن المسيو حسن أراد أن يوضح هدف فرنسا في الجزائر وهو محو الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها، وذلك من خلال سؤاله حول معنى الوطن [29]، الذى عنى به الأرض، البشر المصير المشترك وهو المجال الذي يحيا فيه أبناؤه في عزة وكرامة، والذي يتطلب منا أن نضحي من أجله بالنفس والنفيس : «... الوطن هو أرض الآباء، هو البلد الذي أقمنا فيه منذ أجيال كثيرة، فالوطن لا يتمثل فقط في التربة التي نعيش عليها لكن في مجموع سكانها وكل ما يوجد فيها ...، عندما يأتي من الخارج أجانب يدَّعون أنهم الأسياد يكون الوطن في خطر، فهؤلاء الأجانب أعداء يفرضون على كافة السكان واجب الدفاع عن الوطن المهدد، هنا يكون الخيار هو الحرب ...، يقع على السكان واجب الدفاع عن الوطن والتضحية بوجودهم في سبيله ...، لا تصدقوا إن قيل لكم أن فرنسا هي وطنكم ...»[30]، لقد ولَّدَ المسيو حسن لدى عمر رغبة قوية في معرفة حقيقة الوطن الجزائري .

- **النضال والترهيب:**

إن مُحَّد ديب اختزل نضال الجزائريين في شخصية مُحَّد سراج الفذة، فقد وصفه بذلك المناضل المتعلم، الذي استفاد من تنقلاته داخل وخارج الجزائر، والذي نال قسطا من التعلم فهو يكاد يكون المثقف الوحيد في الدار الكبيرة، فشخصيته تمثل الإيديولوجية الثورية وتنحصر مهمته في نشر الوعي السياسي في الأوساط الشعبية وقد تعلق عمر بالرجل كثيرا، خاصة وأنه أدرك بأن حميد سراج هو مرشد سياسي وموجه ثقافي للجيل الجديد، وأن وجوده ضروري لأية

حركة ترغب في التغيير[31]،كما كان المناضل الذي يسعى لحركة التغيير في مجتمع أذله الاستعمار، بعد أن أدرك مأساة أمته وأنه من واجبه كمثقف ومتعلم أن ينبه الجزائريين ويحذرهم من الواقع الاستعماري المؤلم .

ولأن الاستعمار يدرك خطورة المثقفين على سياسته، قامت الشرطة الفرنسية بتفتيش غرفة حميد سراج في دار السبيطار، وقد وصف مُحَّد ديب المشهد كالتالي: «...أين هو حميد سراج؟ أين يسكن؟ ...فالشرطة الفرنسية قامت بتفتيش كل ما تركه من وثائق وأغراض خاصة به والتي كانت في غرفة أخته، لقد قلبوا كل شيء خاصة كتبه وأحدثوا فوضى في غرفة أخته، لقد أخذوا معهم مجلدات وجرائد ووثائق وما تبقى منها تمت بعثرته على أجزاء الغرفة وفي الساحة ...».[32]

إن حميد سراج واصل نضاله الوطني وسط الفلاحين والعمال في المزارع والحقول مجتمعا بهم سرا في ريف بني بوبلان، لكن السلطات الفرنسية اعتقلته بعد ملاحقتها له [33]، ويصف مُحَّد ديب ظروف الاعتقال كالتالي: «...روت زهور ما سمعت، ولم تر بأم عينيها عند أختها في بني بوبلان، عادت نازلة من هناك من المرتفع عندما انتشر الخبر، حميد سراج قد ألقي عليه القبض مع عدة فلاحين، ففي الريف لا يتحدث الناس سوى عن عمليات إلقاء القبض ...».[34]

إن مُحَّد ديب يصور لنا مظهرا من مظاهر الفزع، الخوف، الإرهاب والترويع الذي قامت به شرطة الاستعمار ومدى تأثيرها في نفسية الطفل الصغير عمر، وذلك أثناء قدوم قواته لاعتقال حميد سراج، فكان هذا المشهد كالتالي: «...وجد عمر نفسه وحيدا في الساحة، كان دمه يصطك في جنبات رأسه، هَمَ قلبه بالإنفلات من صدره لرؤية رجال الشرطة ...، كان

العرق يتصبب من جبينه فجأة أخذ يصرخ: البوليس! رجال البوليس! راهم هنا! راهم هنا! أمّا أتوسل إليك احميني احميني فقط ...، كان هؤلاء الشرطة يحدثون في نفسه هلعا كبيرا، وكان يكرههم ...». (35)

إن ما توصل إليه مُحَمَّد ديب في رواية الدار لكبيرة من خلال ما استشفه القارئ بعد قراءته لها هو التالي:

- تشريح الواقع الجزائري في صورة مصغرة وهي نموذج الدار لكبيرة بكل تفاصيله ودقائقه.
- نستشف كذلك من أن عمر بطل الرواية قد تحول من الطفل الصغير إلى ذلكم الرجل الواعي الناضج المدرك لمعاناة أمته رغم أنه ما يزال طفلا.
- إنه يبحث عن البديل لواقع مر رغم أنه فرد، لكنه يعتبر مثالا للذاكرة والوعي الجماعي.
- إن النشاط الدؤوب والنضال المستمر والتغلغل وسط مكونات المجتمع المختلفة، هي التي تصقل الوعي الجماعي، ولن يتأتى ذلك إلا بدور النخب المثقفة والواعية، وقد جسدها حميد سراج.
- إن رواية الدار لكبيرة تحيلنا إلى الخطورة التي تمثلها النخب المثقفة على السلطة الاستعمارية، بل وعلى أية سلطة كانت، فالعلاقة بينهما تتميز دوما بالصراع والتوتر، مما يحتم على هذه السلطة محاربتها والتضييق عليها.

6. خاتمة:

– يمكن القول بأن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، ركزت على البعد الإنساني وأعطت القضية الوطنية ومسألة الهوية أهمية كبرى ضمن أولوياتها، فهما في نظر الكتابات السردية بالفرنسية جزء لا يتجزأ من مقومات هذه الأمة.

- عبرت مؤلفات مُحَّد ديب عن هاتين الأولويتين، فكانت ثلاثيته تعبيرا صادقا عن الآلام، التي كابدها الجزائريون وشاهد عن عنجهية الاستعمار وتجاوزاته في الجزائر.
- مثل مُحَّد ديب وعلى غرار المثقفين الجزائريين باللغة الفرنسية آنذاك، الإرهاصات الأولى للثورة التحريرية، وكانوا بمثابة الجدار الذي وقف في وجه محاولات فرنسا القضاء على مقومات الشعب الجزائري.
- خدمت الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية شخصية الشعب الجزائري، وعَرَّفت بعدالتها أمام الرأي العام العالمي، مؤسسة بذلك للأدب الثوري الذي إزداد زخما وتطورا مع انطلاق الثورة التحريرية عام 1954م.
- ان دار السبيطار عبرت عن مضامين سياسية، اقتصادية، اجتماعية، وثقافية أسست لميلاد مجتمع جزائري جديد.

7. الهوامش:

1- سلمان نور، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1981، ص13.

2-المرجع نفسه، ص24.

3- شكري غالي، أدب المقاومة، دار المعارف، القاهرة [د.ت]، ص 144.

4- العامري إيمان، «صورة الثورة الجزائرية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية جدلية المركز والهامش » ،مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد 10،2015،جامعة سكيكدة، ص 175.

5-سلمان نور، المرجع السابق، ص 15؛ أيضا:

Roman et:YahiaouiFadhila Sociétécolonial dansl'algérieentre - deux- gueres, edition ENAG Alger، 2006، p 35 -.36.

6- العامري إيمان، المرجع السابق، ص 176.

7- الأطرش يوسف، المنظور الروائي عند مُحَّد ديب، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2004، ص ص 36، 37، 44 .

8- منور أحمد، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل، الجزائر، ص 182.

9- الأطرش يوسف ، المرجع السابق، ص 59.

10-المرجع نفسه ، ص ص60-61.

11-المرجع نفسه ، ص63.

12-المرجع نفسه، ص ص67-71.

13- جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2013، ص62.

14. الأطرش يوسف، المرجع السابق، ص87.

15- المرجع نفسه، ص47.

16- جبور أم الخير، المرجع السابق، ص ص340-350.

17-المرجع نفسه، ص 64.

18- بن قينة عمر، دراسات في القصة الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 18.

19- الأطرش يوسف، المرجع السابق، ص،155.

20- منور أحمد، المرجع السابق، ص 385.

21- ديب مُحَّد، الدار لكبيرة، ترجمة ، أحمد بن مُحَّد بكلي، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، 2011، ص18.

22-Dib Mohamad، La Grande Maison،editions Dahleb ، Editions Bouchene، Alger، 1995، p15.

23-ديب مُحَّد، المصدر السابق، ص ص13-12 .

24- المصدر نفسه ، ص 126.

25-المصدر نفسه، ص 60.

26. المصدر نفسه ، ص 64.

27.جبور أم الخير، المرجع السابق، ص ص99-100.

28-Dib Mohamad، op cit، pp17-18.

29- الأطرش يوسف، المرجع السابق، ص120.

30- ديب مُحَّد، المصدر السابق، ص ص25-26.

31- جبور أم الخير، المرجع السابق، ص 365.

32-Dib Mohamad, opcit, pp 40, 42, 43.

33-Khadda Nadjet, L œuvré romanesque de Mohamad Dib, Office des publications universitaires, Alger, 2002, p20.

34-Ibid, p39.

35-ديب مُحَمَّد، المصدر السابق، ص ص48-49.

8.قائمة المصادر والمراجع:

1- سلمان نور، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1981.

2- شكري غالي، أدب المقاومة، دار المعارف، القاهرة [د.ت].

3- العامري إيمان، «صورة الثورة الجزائرية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية جدلية المركز والهامش » ،مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد 10،2015،جامعة سكيكدة.

4-Roman et:YahiaouiF adhila Sociétécolonial dansl 'algérieentre - deux- gueres, edition ENAG Alger، 2006.

5- الأطرش يوسف، المنظور الروائي عند مُحَمَّد ديب، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2004.

6- منور أحمد، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل، الجزائر.

7- جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2013.

8- بن قينة عمر، دراسات في القصة الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

9- ديب مُحَمَّد، الدار لكبيرة، ترجمة ، أحمد بن مُحَمَّد بكلي، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، 2011.

10-Dib Mohamad، La Grande Maison ،editions Dahleb ، Editions Bouchene، Alger، 1995.

11-Khadda Nadjet, L œuvré romanesque de Mohamad Dib, Office des publications universitaires, Alger, 2002.